أساطير القدماء

ودلالتها

إن أساطير القدماء وعقائدهم وخيالاتهم ، قد تمدنا بأدلة ندرك بها الفرق بين ما أكب القدماء وأهل العصور الوسطى على اليقين به ، وبين العقائد والأفكار التي تذيع في هذا العصر . ان تلك الاشياء كانت في العصور الأولى من المسلمات التي لا تحتمل الشك ، في حين انها وان كان لها مثيلات تنتشر اليوم بين الطبقات الدنيا ؛ فانها أشياء قد دخلت بالشك عند الأوساط من الناس ، ورفضها أهل الطبقات المنتقاة .

ولا شك في أن بعض الناس يعتقدون اليوم في أهل كثير من البلاد النائية عن مواقعهم الجغرافية ، معتقدات أساسها الوهم والخيال ، غير انها خيالات وأوهام اشك في أنها قد تبلغ من الخطأ مبلغ تلك التي ذاعت في القرن الثامن عشر مثلاً . وان هذا هو « المقياس » الذي نقيس عليه مقدار ما أثر الأسلوب العلمي في العقول ، من حيث القضاء على الوهم والخيال في أدمغة الناس .

الانسان الذي عاش منذ ستة قرون مضين ، غير انسان الزمن الحاضر . كان في عقله متسع لأن يصدق أي شيء وان يتقبل كل ما ينقل اليه ، مصدقاً به مسلماً بكل ما هو منابذ لطبيعة الاشياء أو بعيد عن مألوف الواقع ، إذا ما نقل اليه عن سلطة يحترمها أو مصدر يجله . وكيف يستطيع أن يرفض أقصوصة تقص عليه أو واقعة تنقل اليه ، وهو في حياته اليومية على انتظار ما يقع فيما بين لحظة وأخرى من معجزات وخوارق ، كلها على النقيض من سياق الأشياء الطبيعية ؟

من فوقه في السماء ، ومن تحته في الأرض ، عوالم مفعمة بجواهر طاقة مريدة ، شياطين وملائكة وسلائل عجيبة التكوين من أنسال الآلهة ، وفوق ما فيه من استعداد إلى تلبية نداء

الله أو الشيطان — إذ كان يتعذر على القلب ان يحكم أية من الناحيتين تناديه — فيقودانه حيناً الى الخير والفلاح ، وحيناً الى الخطيئات واللعنات .

القديسون والقديسات على الايمان بالقوة القدسية هم صنائع الله الذين أمدهم بقوة من عنده على اصطناع الخوارق والأعاجيب والمعجزات ، لتكون وسيلة الى ايقاظ الورع والتقوى في نفوس المؤمنين ، وإلى جنبهم الشيطان وعماله يشنون حرباً مستمرة لا هوادة فيها ليزعزعوا ما ثبت في أغوار القلوب وأثنى الافئدة من بواعث الخير والطيبة والاستسلام .

إن هذا الاعتقاد الثابت في امكان حدوث المعجزات ، قد أنشأ في عقليته اتجاهاً اصطبغت به كل الأشياء في العصور الوسطى ، من الحوادث البسيطة في مجرى الحياة ، الى الوقائع الكونية التي تصرفها العناية الالهية . وعلى العكس من هذا كله نجد العلم الحديث ، فانه لا يبحث وراء الغاية التي من أجلها وجدت الاشياء في هذه الدنيا ، ولا يجري وراء المعنى الذي يختبئ خلف وجودها . إنه يصف « كيف » تحدث الأشياء ، و « لماذا » تحدث .

يقول « سنتايانا » :

قد نتكلم بعض الأحيان كما لو أن الترهة بخرافة الخوارق او الاعتقاد في المعجزة هو في ذاته رفض لشمولية القانون الطبيعي ، او وحي توحي به الينا رغبة في تشويش تجاريبنا وفهم قدرتنا الفكرية او العقلية . وليس من فرض هو أبعد عن الحقيقة من هذا الفرض . فان كل خرافة انما هي شظية صغيرة من العلم ، يبعثها في أنفسنا رغبة في ان نفهم وان نتطلع ونستقصي ، وان نحكم في شيء من خفايا العالم المنظور . وقوى الطبيعة أو قوى الفرد الحر ، أقرب الى الفهم واطوع الى الاستيعاب من المعاني الآلية التامة القريبة منه . ... ان معنى الخرافة والمعجزة امر قريب من أنفسنا وعقولنا . فهو يرى الانسان في المعجزة طريقاً الى طلب الرحمة ، او وسيلة الى اثبات وجود السلطة العليا في الخلق او رغبة من نوع ما تجبرنا على الاعتقاد بها . وعلى الضد من ذلك ، نجد ان قانوناً آلياً ان كان في الواقع تسجيلا لما يجري في العادة ، انما هو في ظاهر نظام الاشياء أمر لا عقل ولا رشد فيه . فرحادثاً من حوادث الطبيعة يستعصي على التفسير ، ولا يستظهر منها قصد معين معروف ، لا يدخل في نطاق المعجزة . فإن ان ما يدهشنا من أمر المعجزة والاعتقاد فيها ، انه على العكس مما رأينا فيها من قبل ، قد يرى الآن ان لها أساساً صحيحاً حتى تبرر الاعتقاد بها زمناً ما .

من ثمت نجد أهل القرون الوسطى في توثبهم إلى فهم الدنيا المحيطة بهم ، قد أيقنوا بأن القصد يختفي من وراء الاشياء ، والغاية تكمن خلف ظواهرها ، وان هذا القصد وتلك الغاية قد يكتنفان عند حدوث أي حادث . كذلك رأى أن ارادة الله هي السبب الثاني لوجود الكون ، وان هذه الارادة إن استعصى على العقل الكشف عن معضلاتها ، فانها على الأقل تهيء للانسان فرصة الوقوف على معنى الأشياء وصبغتها العقلية .

لا شك في أن الانسان الذي يعيش في مثل هذا الجو ، من شأنه أن يعمر الدنيا المحيطة به بذوات عاقلة يتخيل وجودها وقوات روحية يتصورها ، ويتوقع حدوث ما لا يمكن توقعه من أحداث الدنيا ، ويضفي على كل ذلك قيمة موهومة . وكذلك لا يبعد على ذهنه أن يقبل فكرة أن هذه الذوات وتلك الأرواح قد تعمل على اثبات وجودها وتحقيق أثرها باحداث خوارق ومعجزات .

* * *

ان حياة القديسين ، وكانت من أشهر ما يخاطب القلوب في العصور الوسطى ، تزخر بذكر أشياء خارقة للطبيعة ، وقد سجلت في المخلفات التي تركها هؤلاء القديسين وأقيمت لاحياء ذكراها الاحتفالات ونظمت المهرجانات . ولا مشاحة في أن هذه الخوارق كانت الطريق الممهد الى القداسة .

أما الشيطان وأنصار الشيطان، فكانت أشياء حقيقية واقعة في معتقدهم ثابتة في روعهم، وأن قدرة الله وقوة ملائكته كانت كثيرة ما تعبأ بين آونة وأخرى لتعلن عليهم الحرب بعد الحرب والغارة بعد الغارة . وكانت مخلفات القديسين وتبريك الكنيسة والصلوات والتوسّل والعطايا والتضحيات ، كانت الأشياء التي يلجأ اليها إذا حزب الأمر وثار ثائر الفوضى .

فمن القديس بطرس ، ودم باسيل ، وشعر دنيس ، وجثمان القديس مرقص الذي سرقه البحارة البندقيون ليكون في كاتدرائيتهم المرصعة بالجواهر على ضفاف ضحاضحهم ، وبيت العذراء مريم الذي طار بمعجزة عبر البحر الى « لورتو » عامة ذا قد اتخذت مصادر تستمد منها القوة التي يمكن بها رد البغي الانساني والغواية الشيطانية . ولقد رغب الناس في هذه رغبة محمومة حتى أن القديس لويس الفرنسي قد أراح نفسه بالاعتقاد بأن حملته الصليبية كانت فوزاً مبيناً ونصراً خالداً ، بالرغم من انه لم يهبط الأرض المقدسة ، لأنه استطاع أن يحضر معه قطعة من خشب الصليب الحقيقي الذي صلب عليه المسيح .

* * *

ولقد روى غريغوري الكبير قصة عن قديس ، تمثل بجلاء فكر الناس ومعتقداتهم في العصور الوسطى :

في جبل مرسيكوس ، باقليم كامبانيا ، عاش رجل يدعى مارتن سنوات عديدة في كهف ضيق . ولقد عرفه الكثيرون منا وأصبحوا شهداء على أعماله . ولقد سمعت عنه الكثير من البابا بيلاجيوس سلفي وغيره من رجال الدين الذين رووا ما اتصل بهم من وقائعه . وها هي ذي أولى معجزاته : فانه لم يكد يستقر في رأس

ذلك الجبل، متخذاً غار ... له مستقراً له ، حتى انبثق ينبوع من الماء الجاري يكفي لسد حاجاته حتى يقوم بخدمة الله ، وكان يجري الماء ... فلا أقل ولا أكثر مما يحتاج .... ولكن عدو الانسان القديم حقد على الرجل ... فعمل على أن يخرج هذا الرجل من كهفه متخذاً من شيطانيته وميله سبيلا الى ذلك . وقد حل في جثمان ثعبان ... وحاول أن يفزع الراهب ويخيفه ويروعه ، عسى أن يهرب من مأواه هذا ... وانطرح أمام القديس عندما كان يصلي ، ونام الى جنبه عندما أراد أن يستريح . ولكن الرجل لم يفزع ... بعد أن لم تخيفه أو يمد اليه قدمه ويقول له : « اذا أردت أن تبتلعني فافعل ... » وبعد أن ظلت هذه الاشياء تجري ثلاث سنوات ، تخلى عدو الانسان الاقدم نجاحه مهزوماً ... واتخذ الثعبان طريقه من فوق الجبل الى موردة صاخباً ، فأحرق اللهب الذي خرج منه جميع الاشجار التي كانت في ذلك المكان »

• ◦ •

مثل هذه الأ... بعذاب في الجحيم ، هو ذلك العذاب الذي سوف يلقى أولئك الذين لم يتوبوا ... عن الله . ولقد سعدت جهنم العبرانية Gehenna بكثير من عناية الانسان في تلك العصور ، فوصفت أكمل وصف ، واختيرت مجالاتها ومفعلاتها أتم اختيار ، وارتيدت جنباتها القصية وأصقاعها الجحيمية ، وأضفيت عليها كل الأوصاف التي تخيلها القدماء ... أما المياه فكانت بعيدة جهد البعد ، نائية كل النأي ، هنالك فيما بعد القبة الزرقاء وفيما وراء كل الكواكب المرئية . ولكن قدرة الله قد تمتد فتصل الى كل ركن من أركان الوجود ، والى كل وقت مهما ذل وصغر من وقوت العالم المخلوق .

وكثيراً ما كان الناس يستمعون الى ما سوف يحل بهم من عقاب اذا عصوا ومن ثواب اذا أطاعوا ، ... يصغون الى شيء من هذا من غير أن ترتعد فرائصهم فزعاً وروعاً . وكان هذا ... عالم الغيب ، قريب كل القرب من مشاعر ريفي من الفلاحين أو تاجر من المدنيين ... كان أقرب اليه ... عن ما يخيل اليه عقله وشعوره ، من بلاد كبلاد الهند ، أو من روما نفسها ، حتى لقد كان يتخيل المرء انه على عتبة الآخرة ، وانها أقرب اليه من حبل الوريد . على انه لا ينبغي أن يسبق الى حدسنا أن انسان ذلك العصر العادي أو الراهب ... قد أدخل حياته أكثر حذراً وأمعن تقية ترقباً لتلك الدار الأخرى التي سوف ينتقل اليها ، أو ان التحقق من حدوث العقاب والثواب بعد الموت قد كان من بواعث ... في رغباته وشهواته ؟

لا شك في انه ... أن ينال الحل absolution وغفران الخطيئات ، وان نياته كانت ولا شك على أتم ما ... يحكم الطبع البشري . ولكن الجنة وجهنم ، كانتا من الاشياء

الواقعة لامحالة — وإن كل منكم إلاّ واردها — وانهما كمثل الأشياء التي تقع بالانسان من غير أن يكون له اختيار فيهـا كأن يولد وأن يموت . وما دام الأمر كذلك ، فليس من الفطنة أن يعنت الانسان نفسه في التفكير فيما هو محتوم انه يقع ، وإن كان قريب الوقوع .

أما أشياؤه الدنيوية فاحتوت على مجموعة من العادات والعرف والآراء المتداولة بين الناس تداول النقد ، من غير أن يتسرب ذلك الانسان الى مجالات جديدة من العمل أو أغوار جديدة من الفكر .

على هذه الصورة كانت دنيا الأوساط من الناس في العصور الوسطى . وهي دنيا لاتبعد كثيراً عن دنيا كثير من أهل الريف في هذا العصر . وفي هذا دلالة على ان حركة « التنوير » التقدمي قد مضت وئيدة الخطوات ، وان الخطوات التي خطتها ، كانت في مكان دون مكان .

أما الباحثون في علم الانسان فيقولون ان تيارات العقول التي عاشت في مثل تلك الدنيا ، انما تعطينا صورة من تلك الخصائص العامة الشاملة التي تختص بها المعتقدات الانسانية حينما تعلو على العقل أن يتهذب باستيعاب التحقيقات العلمية . إن « العقلية البدائية » ، انما دعيت كذلك استناداً الى ما يستدل به عليها من عقلية أهل القبائل المتأخرة التي تعيش في العصر الحاضر . وهذه العقلية بذاتها هي التي دفعت بها عقول أهل العصور الوسطى ، فاحتكمت في تكييف الاتجاهات العقلية ، حتى عند أرقاهم فهماً وأحدهم ذكاء

* * *

بالنظر في هذه المعتقدات التي ترجع الى تلك الأزمان القصية نجد ان انسان العصر الحديث ، إنما هو في حقيقة أمره كثير اتصاله شديد القرب من همج تلك العصور ، لأنه لا يزال أبعد ما يكون عن شكية أهل العلم التجريبية . وان الخاصية الشاملة التي يتعلق بها هذا القالب العقلي ، سواء أوقعت عليها في جزر البحار الجنوبية ، أو في العصور الوسطى ، أو عند القشابين في حرجات مصرك الحاضر ، انما تنحصر في افراط في الاعتقاد وتفسير كل حادث من حوادث الحياة تفسيراً تأثرياً انفعالياً ، وثقة يقينية في حقيقة تلك المعتقدات ، وكراهة متمكنة في وضع هذه الأشياء موضع البحث ، أو جرها الى مجال الاختبار . وبالاختصار نقول ان مثل هذا العقل انما « يفهم » معنى كل الأشياء ، ولكنه في الوقت ذاته لا يعرف معرفة تحقيق الاّ مفصلات تتعلق بحاجاته اليومية المحدودة فهو من الجهل بالعالم بحيث يمكن أن تسلم به أتفه الأخطاء ، إلى أنكى الأخطار .